سورية ولبنان

(١) نظرة عامة

لما تبلج فجر الحرية وانهزم ليل الاستبداد تاقت نفسي الى رؤية البلاد التي ولدت فيها وشبت وتغذى جسمي من خيرات ارضها وعقلي من علوم مدارسها قبل ان الجأتني يد الاستبداد الى هجرانها . لكن الدستور الذي اطلق الحرية للعثمانيين وفتح السجون للمسجونين قيَّد الصحافيين بمراقبة مجاري الاحوال وحملهم اعباء ثقيلة في تقصي الاخبار وبسط الاماني والآمال فتضاعف اشتغالهم وتعذَّر عليَّ التفرغ للراحة وزيارة مسقط رأسي قبل اواخر هذا الصيف . وقد رجا البعض ان يقفوا على ما رأيتهُ فيهِ بعد هذا الهجران الطويل فكتبت السطور التالية موجزاً المقال على قدر الامكان

مما يعرف بالبداهة ان الانسان لا يتنبه لسير الافعال المتصلة ولاسيما اذا كانت بطيئة فيشاهد ابنهُ يوماً بعد يوم وسنة بعد اخرى ولا يتنبهُ لنموهِ . يراهُ طفلاً ثم شاباً فلا يستغرب ذلك لان نموهُ بطيء متصل . ولكنهُ اذا فارقهُ طفلاً ثم عاد اليهِ بعد عشرين سنة ووجدهُ رجلاً رأى الفرق كبيراً ولو كان عادياً . واذا فارق شيئاً ثم عاد اليهِ فرآهُ قد نما نمواً غير عادي فهناك الدهشة الكبرى وهذا عين ما جرى لي فاني برحت سورية في اوائل سنة ١٨٨٥ ثم عدت اليها للاصطياف سنة ١٨٨٧ ولم تعد عيني تكتحل برؤياها الاَّ الآن . وقد شاهدت جانباً كبيراً منها في صباي منذ نحو خمسين سنة ثم شاهدتهُ منذ خمس وعشرين سنة وكان ذلك آخر عهدي بهِ قبل رأيتهُ الآن بلغت دهشتي اقصاها لاني رأيتهُ قد نما في الخمس والعشرين سنة الاخيرة اضعاف ما نما في التي قبلها لاسيما وان احوال الحكومة العثمانية كانت قد ساءت في هذه السنين الاخيرة واستحكمت حلقات التضييق على الاهلين حتى اضطرَّ كثيرون منهم الى المهاجرة فقصدوا الديار المصرية وانتشروا في اميركا الشمالية والجنوبية وبلغوا استراليا وجزائر البحر وحملك ليل الاستبداد وجرى من الفظائع في البلاد ما لم يجر في عهد نيرون وصودر الناس في املاكهم واموالهم وكمَّت الافواه عن الشكوى وراجت سوق الجاسوسية واتخذها الاشرار وسيلة للايقاع بالابرياء وضربت الرشوة اطنابها في البلاد فهضمت الحقوق واستحلت المحرمات . وكانت اخبار ذلك تصل الينا من افواه الثقات فلا نشك في صحتها وفي ان البلاد انحطت عما كانت عليهِ لما فارقناها وحتى الآن لم تقابل احداً يؤخذ بقولهِ من رجال لبنان ومدن

الساحل الأ سمعناهُ يشكو من سوء الحال الماضية والحاضرة ايضاً

ولم نكن نجهل ان الشكوى قد لا تكون دليلاً على عظم البلوى بل على زيادة الشعور الناتجة عن تحسن الحال . ولكن الاخبار التي كانت تروى عن الحالة الماضية وما جاهرت بهِ الجرائد العثمانية بعد اعلان الدستور وما يجاهر بهِ رجال الحكومة انفسهم الآن كل ذلك ادلة قاطعة على ان احوال الحكومة كانت في الدرجة القصوى من الاختلال والفساد

ولم نكن نجهل ايضاً ان اموال المهاجرة افادت سورية عموماً ولبنان خصوصاً فزاد عمرانهُ وبنيت فيهِ البيوت الفخيمة وغلت اسعار املاكهِ . وان سكة الحجاز افاضت الاموال على دمشق وما يجاورها فان اخبار ذلك كانت ترد علينا من افواه الثقات ولكن الذين كانوا يصفون لنا حال البلاد لم يكونوا يصورونها كما رأيناها لانهم كانوا يرون البلاد ترتقي ارتقاء مطرداً فلا تشفي لهم المقابلة بين حالها الماضية وحالها الحاضرة ولان غواشي الظلم التي كانت مخيمة على البلاد امتزجت بكل ما يدعو الى البهجة والحبور فكدرت الصفاء وازالت الرواء . وحتى الآن لا تزال الشكوى عامة من كل شيء حتى من جمعية الاتحاد والترقي التي لها الفضل الاكبر في انقاذ البلاد ومن الدستور الذي هو اكبر نعمة انعم بها الله عليها ومن المهاجرة التي لها اليد الطولى في ارتقائها

وفي الربيع الماضي زار لبنان معتمد الدولة البريطانية في القطر المصري مستشفياً من انحراف الم بصحتهِ ونزل في فندق ببرمانا قضى فيهِ اياماً ثم عاد الى القطر المصري مدهوشاً مما رآهُ من آثار الحضارة ومعالم العمران معجباً بما شاهدهُ من جمال البلاد الطبيعي والصناعي لا يكاد يجد الفاظاً للتعبير عن ذلك . وقد يظن لاول وهلة انهُ توقع ان يرى الجبل صخوراً قاحلة وسكانهُ همجاً مثل عامة سكان الجبال فلما رأى ما هو ارقى من ذلك ولو قليلاً اعجب بهِ ودعاه حب المجاملة الى وصف لبنان امام ابنائهِ وصفاً يفوق الحقيقة ومدح سورية مدحاً لا تستحقهُ . ولكن الذي يعرف طباع الانكليز يعلم انهم لا يميلون الى المجاملة ولا يطنبون في مدح ما لا يستحق المدح فتاقت نفسي الى رؤية البلاد باسرع ما يمكن وبادرت الى تدبير اشغالي حتى تمكنت من زيارتها الآن

قمت من القاهرة وطني الثاني في السادس من سبتمبر (ايلول ؟) وركبت باخرة نمسوية تما بحر بين مصر والشام فوجدتها من انظف البواخر واوفاها خدمة ولقد فضلتها على غيرها مع طول شقة السفر فيها لانها تقف في يافا وحيفا فيتسنى لي ان اراها واقابل بين حاضرها وماضيها فوجدتهما قد نفا نمواً عجيباً منذ خمس وعشرين سنة الى الآن لكن هذا النمو

اقتصر على ما يتعلق بالسكان ولم يتناول ما يناط فعله بالحكومة فبنيت البيوت الفخيمة وانشئت الاسواق الكبيرة واتسع نطاق التجارة وزادت الواردات والصادرات حتى غصت بها الجارك وبدت على الناس دلائل الثروة والرفاهة. وقد زرت عكاء مدة قيام السفينة في حيفا فلم اجد فيها مباني جديدة لان مبانيها القديمة تملأ ما بين اسوارها ولكنني وجدت فيها من دلائل الرفاهة معملاً للثلج يدار باحدث الآلات البخارية آلة الانثراسيت. واتفق ان وصل الى يافا حافظ بك السعيد مبعوثها وسعيد بك الحسيني مبعوث القدس يوم وصولي اليها فلم ارَ من السكان اهتماماً باستقبالهما لكني رأيت وجهاء المدينة يفدون للتسليم عليهما وملاكرتهما في مصالح البلاد دلالة على ان زمان البهرجة قد مضى وجاء زمان العقل والتروي. ولقيت في يافا وحيفا جماعة من الوجهاء والفضلاء منهم عمر افندي البيطار وجرجي بك دياس ويوسف افندي عرقتنجي وعبد اللطيف افندي العمري وعلي بك رضا واسكندر افندي فياض وانطون افندي متى. وكان حديثهم متجهاً كلهُ الى حال البلاد الادارية والاقتصادية كانتقاء المأمورين وتوسيع الجارك وانشاء المراقد واصلاح الشوارع وما اشبه. ولأهل حيفا اهتمام شديد بانشاء مرفإ لمدينتهم وقد حادثت ربان السفينة في امره وحسبت نفقاته بناء على ما اعلمني من طول اللسان الممتد تحت البحر من جبل الكرمل وعمقه فلم اجد انها تزيد على مئة الف جنيه الى مئة وعشرين الفاً فاذا انشئ تحوّل جانب كبير من تجارة سورية الى حيفا وعسى ان لا تتأثر القنالة الالمانية التي هناك بالجانب الاكبر من تلك التجارة. وقد ازدادت تجارة يافا الآن وتبلغ قيمة صادراتها نحو ٦٥٠ الف جنيه وقيمة وارداتها نحو ٤٥٠ الف جنيه ويصدر منها كل سنة نحو مليون صندوق من البرتقال. اما بيروت فمبانيها وامورها التجارية والصناعية تقتضي رسالة مسهبة فارجئها الى فرصة أخرى

ويقال بنوع عام عن مدن الساحل التي رأيتها يافا وحيفا وعكاء وبيروت ان كل ما يناط فيها بالاهلين قد تقدم تقدماً عظيماً منذ خمس وعشرين سنة الى الآن لا يفوقهُ تقدم مدينة مصرية في هذه المدة عدا القاهرة والاسكندرية. واما ما يناط بالحكومة فبقي على حاله او انحط عما كان عليه كأن الاهلين تقدموا رغماً عن الحكومة والحكومة تأخرت رغماً عن الاهلين. ولم ارَ للحكومة الحديثة اثراً يذكر في هذه المدن سوى برج ساعة في يافا وبرج ساعة في حيفا ودارٍ حسنة للحكومة فيها. واما التنظيم فلا اثر لهُ وطرق المركبات امست احقر ومزالق وحدائق النزهة لا وجود لها الاَّ في بيروت ولا مصارف لمياه الامطار ولا تماشي للشوارع ولا غرابة في ذلك لان الذين اساءوا سياسة الرعية وافسدوا امورها لا ينتظر

منهم ان يحسنوا مظاهرها و يصلحوا مرافقها ولا انا ممن يفتش عن سيئة في زمان كلهُ سيئات فقد مضى ذلك الزمان بجرمهِ وبجرمهِ وعلى رجال الحكومة الدستورية الآن ان يجاروا الرعية و يسبقوها في ميدان العمران

وصلت بيروت عند الفجر ونظرت اليها نظرةً عامة ولم اقف فيها بل ذهبت الى الحدث مسقط رأسي لازور مدفن والدي فرأيت انها نمت منذ خمس وعشرين سنة الى الآن اكثر مما نمت في كل سنيها الغابرة مع انها كانت مقرًّا للامراء الشهابيين وزادت دهشتي لما رأيت ان الذين كنت اعرفهم ولا شيء لهم من الثروة قد تاجروا واثروا او هاجروا ورجعوا باموال وافرة وانشأ بعضهم بيوتاً تجارية في باريس ونيويورك وقد بنوا كلهم البيوت الكبيرة وانشأوا المخازن الواسعة لخزن بضائع سكة الحديد

ثم صعدت الى ظهور الشوير حيث تقضي عائلتي فصل الصيف واخترت طريقاً سرت فيهِ اولاً منذ نحو خمسين سنة وثانياً منذ نحو ثلاثين سنة وكان في النوبتين على غاية الوعورة يسير فيهِ البغل والفرس متعثراً ويقف مرةً بعد اخرى يستنشق الهواء ولو نطق لاستنزل النقم على الانسان الذي كلفهُ ذلك العناء . وكانت الطريق مجمعاً للحجارة التي يجمعها اصحاب الحقول من حقولهم ويطرحونها فيهِ او سيلاً لمياه الامطار وكانت بيوت القرى من الساحل الى الشوير صغيرة مثل سائر بيوت لبنان ما عدا مساكن الامراء اللمعيين في يرمانا وبعض البيوت في بيت مري وبعبدات وما عدا ادیرة الرهبان على رأس كل صومعة . وكانت جوانب الآكام جرداء اكثرها وهي من اصلح الاراضي لزرع الصنوبر فما اعظم الفرق بين ما رأيتهُ حينئذٍ وما رأيتهُ الآن . صعدت بركبة يجرها جوادان لا يكادان يشعران بالتعب لسهولة الطريق مع تعبها الكثير وقد طالت لكثرة عطفاتها وكأنها طالت وتلوّت لتمتع الراكب باختلاف المناظر شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فرأيت فتن الآكام الى بطون الاودية قرًى ومزارع بيت فيها البيوت الفخيمة بناء محكماً ومسقفت بالقرميد وبعضها واجهات على اعمدة من الرخام والارض حولها نضرة بما فيها من التوت والكرم وجوانب الآكام مغطاة كلها بحراج الصنوبر زمرد وزبرجد والوان العقيق والبيوت بينها مسادیق من الفضة منوجة باليواقيت

ولقد جلت في ابطاليا وسويسرا وفرنسا وانكلترا وشاهدت مجالي الغنى والمجد والعمران ومحط ثروة الهند الشرقية والهند الغربية ولكنني لم ارَ هناك ما هو دون على الغنى في القرى والمساكن مما رأيت في قرى لبنان . واتفق ان امطرت السماء في اليوم السابق مطراً غزيراً غسل وجه

الارض وجرف ما سنتهُ حوافر الخيل وعجل المركبات من الطرق فتجلت الطبيعة بابهى مجاليها

وظلت المركبة تسير بي الهوينا الى ان بلغت ظهور الشوير وهناك لم أكد اصدق عيني فاني رأيت هذه الظهور آخر مرة منذ نحو ثلاثين سنة وكانت قفراً اجرد لا شجر فيهِ ولا نبات ولا ما يدل على وجود الانسان الا خان حقير يستريح فيهِ المكارون اما الآن فخراج وكروم وبيوت نحيسة كاكبر بيوت المدن وتندقان كبيران وقهاوي ودكاكين . والمصطافون من سدن الساحل والديار المصرية جلوس في القهاوي او مشاة في الطرق للنزهة او وقوف في شرفات المنازل وبعد قليل اطلت على الشوير نفسها تلك القرية القديمة التي نزلت اليها في صباي على درج متخرب كثير العثرات اما الآن فيوصل اليها بطريقين من طرق المركبات المبسطة وقد زادت عمارتها مع انها كانت من القرى الممتازة بجودة مبانيها لان البناء صناعة اهلها ولكن شتان بين مبانيها القديمة وبين المباني التي انشئت فيها منذ ثلاثين سنة الى الآن ثم التفت شرقاً وغرباً من الحشارة الى بكفيا فاذا على كل ما فيها من البيوت والكنائس والاديرة دلائل التجدد والسعة والثروة

وان قلمي ليعجز عن وصف ما رأيتهُ بعد ذلك في بكفيا وبرمانا وبيت مري وعاليه وسوق الغرب وعاريا وبحمدون وصوفر وحمانا وزحلة مدينة لبنان الكبرى . دخلت بيتاً من بيوت عاريا منذ ثلاثين سنة وهو لوجيه من اكبر وجهاء لبنان وكان اكبر بيوت عاريا واكثرها اتقاناً لانهُ بني على نسق البيوت الصغيرة في بيروت . ثم دخلتهُ الآن فوجدت ان صاحبهُ قد زادهُ بناء واتقاناً فصار اكثر من ضعفي ما كان لكن القرية التي لم يكن فيها بيت يضاهيهِ وهو في حالهِ الاولى صار فيها الآن بيوت اكبر منهُ واجمل وهو في حالهِ الحاضرة . ودخلت داراً في بكفيا منذ ثلاثين سنة كانت اكبر دورها بل اكبر قصورها وحالما أضيف فيها امراء اوربا واولاد ملوكها ودخلتها الآن وقد زادها صاحبها بناء واتقاناً ولكني رأيت في بكفيا دوراً كثيرة اكبر منها وانعم وقد تأنق صاحب دار منها فجعل درجها من المرمر . ويقال ان شمالي لبنان الذي لم ارهُ حتى الآن اكثر عمارة من الجهات التي رأيتها وكل ذلك جديد فيهِ لم يكن منذ ثلاثين سنة . ولم يكتف السكان ببناء المباني وغرس الكروم والخراج بل استخدموا كل وسائل العمران الجديدة فترى حقولهم مسيجة بالاسلاك المعدنية ذات الرؤوس وبيوتهم موقية من الصواعق بقضبان نحاسية وعلى صهاريجهم الطلمبات لرفع الماء منها . وقد مررت قبل كتابة هذه السطور في قرية حمانا فرأيت فجاراً يدير مناشيرهُ ومخارطهُ بآلة بخارية ومغربلاً يغربل قمحهُ بآلة اميركية

فمن اين هذه الثروة وما هو مصدر هذا الارتقاء . أمن خيرات لبنان ام من مساعي حكومته ام من عدل الولاة بين المجاورتين له . كلا لا شيء من ذلك بل من المهاجرة التي اغدقت عليه ينابيع الثروة وعلمت ابناءه الاقتداء بالامم المتمدنة . ولقد هاجر اللبنانيون تجاراً ولو ببضائع زرية ليس لها كبير قيمة ولا هي من بضائع كبار التجار فركبوا البحار كما كان يفعل اسلافهم الفينيقيون وضربوا في ولايات اميركا الشمالية والجنوبية ووصلوا الى استراليا والترنسفال واقاموا في عواصم اليابان واكتسبوا من الامم التي اتجروا في بلادها وعادوا بالاموال الوافرة فبنوا البيوت وباعوا الاملاك وكرروا السفر ولا يزال هذا شأنهم الى الآن فاستفادوا وافادوا مدن الساحل المجاورة لهم . والذين لم يهاجروا شاركوا المهاجرين في الكسب لانهم عاملوهم او باعوهم بعض املاكهم باغلى الاسعار حتى ان ما يساوي مئة جنيه من مزارع التوت وكروم العنب بيع بثلاثمئة جنيه او باربع مئة فتوزعت بذلك الاموال المكتسبة من المهاجرة على سكان الجبل وما يجاوره وهذا شأن كل القرى السورية التي هاجر سكانها للمهاجرة . وسأعود الى تفصيل هذا الاجمال في الفصول التالية واصف ايضاً ما لقيته من كرام السوريين عموماً واللبنانيين خصوصاً من الحفاوة التي لا استحق عشر معشارها تحدثاً بفضل اصحابها . ثم استطرد الى سياسة البلاد الحاضرة ورأي اصحابها فيها

(٢) الزراعة والصناعة والتجارة والامارة والضيافة

لا مندوحة للكاتب العربي عن الرجوع الى تقسيم المعايش كما جرى عليه حكماء العرب الى زراعة وصناعة وتجارة وامارة . ويضاف الى ذلك باب خامس وهو الاكتساب من الزوار والسياح والمصطافين وقد اطلقت عليه اسم الضيافة ولو كانت الضيافة اصلاً لاكتساب الاسم لا المال

الزراعة — وجدت الزراعة قد اتسع نطاقها في جهات سورية ولبنان خلافاً لما ينتج عن مهاجرة السكان وفساد الاحكام وربما لم تتسع كما يجب لان خمساً وعشرين سنة من مئتي الرخاء يزيد السكان فيها اربعين او خمسين في المئة فيجب ان يزيد سكان سورية ولبنان فيها سبع مئة الف نفس وعدد المهاجرين الآن ليس اكثر من مئتي الف فيبقى نحو خمس مئة الف نفس زادوا في البلاد منذ خمس وعشرين سنة الى الآن ولا يظهر لنا ان الزراعة زادت على هذه النسبة ولو كانت زيادتها كبيرة

واكثر الزيادة في غرس الجنائن والبساتين والتوت والكرم وفي زرع الاحراش في لبنان

ولاسيما في المدن من مدير ياته فان جوانب اكامه اكتست باشجار الصنوبر . ولو بذلت العناية لزرع الحراج في كل لبنان من جهتيه الغربية والشرقية وفي كل الجبال السورية ومنعت المعزى من رعيها واستغلال الحراج الطبيعية لكان من ذلك مورد ثروة كبيرة جداً ولزاد بالحراج مقدار المطر ولتزرت الينابيع ولو لم يزد لان جذور الاشجار تقي التراب من جرف المطر له والتراب يمتص الكثير من ماء المطر فيغور في الارض ويجري مع ينابيعها بدلاً من ان يخدر عنها ويجري مع مياه الغدران

ولكل الدول المتمدنة اعتناء عظيم بتحريش بلادها وحفظ حراجها وقد رأينا الناس في سويسرا لا يقطعون من اشجار حراجهم الاَّ عدداً معلوماً كل سنة واشجاراً معينة جارين في ذلك على نظام معلوم حتى يزيد عدد الاشجار في الحراج ولا ينقص . وتذكران فرنسو باشا متصرف لبنان الثاني ووالد دولتلو يوسف باشا فرنسو المتصرف الحالي وزع بذور الصنوبر على ضياع كثيرة ورغب الاهلين في زرعها وهي الآن باسقة الاشجار تردد آيات الثناء عليه . ولو حذا حذوه كل المتصرفين والولاة لكانت جبال سورية الآن مثل جبال سويسرا في كثرة حراجها وغياضها

قال لنا امير من امراء لبنان انهُ جرب التحريش فوجد نفقاته كبيرة جداً تزيد عما ينتظر منهُ من النفع . وقد اصاب لانهُ من الذين لا يعملون بايديهم ولا يراقبون املاكهم بانفسهم فلا عجب اذا كلفهُ زرع الحراج نفقات كثيرة اما الفلاحون والملاك الذين يراقبون املاكهم بانفسهم ويقتصدون في نفقاتهم ولا تذهب اموالهم اجوراً لخدمهم فلا يكلفهم زرع الحراج ما يكلف غيرهم

ويظهر لنا انهُ لا بد لحكومة سورية وحكومة لبنان من ان تجريا مجرى الحكومة المصرية في ضرب الضرائب على الاراضي البور التي يمكن ان تزرع حراجاً او زراعة اخرى اجباراً لاصحابها على زرعها واستثمارها . وليس من العدل ولا من الحكمة ان يكون لزيد مئة دنم او مئة فدان من الارض البور التي تحميها الحكومة من اعتداء الاخرين عليها وتزيد لهُ قيمتها بما تفعلهُ لترقية البلاد بنوع عام وهو لا يدفع شيئاً للحكومة عن هذه الحماية وهذه الترقية بل يترك ما في ارضهِ من الخيرات الطبيعية يضيع سدًى من غير ان ينتفع بهِ احد . فاذا ضربت الضرائب على الاراضي البور اضطر اصحابها ان يزرعوها او ان يبيعوها لمن يزرعها فتحصل الفائدة المطلوبة من استثمارها

ويسهل منع المعزى من الاضرار بالحراج بل من استئصالها وذلك بضرب الضرائب

الثقيلة عليها فاذا ضربت الحكومة ريالاً او ريالين على كل رأس من المعزى اضطر اصحابها ان يذبحوها فتنجو البلاد من آفة لا اضرّ منها عليها

ولم ارَ تقدماً يذكر في اتقان الزراعة فلا يزال الزيتون يحمل سنة و يبطل الحمل اخرى مع ان ادالي ايطاليا وفرنسا يعالجونهُ حتى يحمل كل سنة . ولا تزال الكروم في لبنان قليلة الحمل مع ان الجزويت اتوا بدوالي تحمل اكثر منها كثيراً وقد رأينا الكروم في سويسرا وايطاليا وحملها يزيد على حمل كروم لبنان ورأينا في الكرم الواحد من لبنان دوالي كثيرة الحمل جدّاً مع ان اكثر دوالي الكروم قليل الحمل فلو اعتني بالزراعة الاعتناء الواجب لاكثر اربابها من زرع ما يكثر حملهُ لا غير

اما زراعة التوت والتبغ وسائر اشجار الفاكهة في مدن الساحل وغوطة دمشق فنظن انها بلغت حد الاتقان لانهُ ليس اخضر من برتقال يافا واشمش صيدا وتفاح الزبداني وعنب دمشق ودراقنها (خوخها) وكمثراها

***

الصناعة — لقيت الصناعة السورية من مزاحمة البضائع الاوربية ما اضعفها وكاد يقضي عليها فبطلت صناعة الفخار الاّ الجرار والاباريق وضعفت صناعة الصابون وقلت انوال الحياكة بعد ان كانت منتشرة في كل المدن والقرى ولكن البقية الباقية من الصناعة السورية ليست مما يستخف بهِ فكل المصنوعات الحشبية تصنع الآن في البلاد السورية ويصدر من مصنوعات دمشق المطعمة مقدار ليس بالقليل يرسل الى اوربا واميركا والقطر المصري . وقد استحضر السوريون احدث الآلات والادوات لاتقان اعمال النجارة وتسهيلها حتى اننا رأينا نجاراً في قرية حمانا من قرى لبنان يستعمل آلة بخارية لادارة مخارطهِ ومناشيرهِ . ولاهالي دمشق والزوق ربكفيا تجارة واسعة بمنسوجاتهم الحريرية والصوفية والقطنية ترسل الى اوربا واميركا والقطر المصري والحجاز وبر الاناضول وفس على ذلك المصنوعات الصوفية على انواعها . وقد شاعت الآن صناعة جديدة — صناعة حبك الدانتلات على انواعها وهي خاصة بالنساء . ففي بيروت معمل فيهِ الف بنت يعملن بهذه الصناعة ويشاركهن في ذلك كثيرات من بنات لبنان . وقد شاهدت بنات الجبل لابسات اخر الملابس كبنات المدن فقيل لي انهنَّ يلبسن كذلك من عمل ايديهنَّ فان الابنة منهنَّ تكتسب في يومها من حبكهن الى خمسة شلنات من صناعة الحبك وعمل النول . وترسل هذه المصنوعات الى اميركا حيث يروج اللبنانيون صوفها فيكون كل ربحها لهم . وقد رأيت مخازن دمشق مملوءة بالمنسوجات الدمشقية قلدوا بها الكشمير على

كل اشكاله . ونهض الحائكة الآن يباهون بلبس المنسوجات الوطنية ولكنهم يجلبون الغزل من اوربا فلو انشئ في البلاد معمل يغزل القطن المصري او قطناً سورياً طويل الشعر كالقطن المصري ونسجت المنسوجات منه وعرف الناس مزيته من حيث متانته ولمعانه لنعموا ثمنه مضاعف ما يدفعون ثمن ما ينسج من غزل اوربي وكانوا هم الرابحين . اما اتقان الحائكة لصناعة الخشب المخروط والمطعم ولصناعة البلاط المنزل فسأعود اليه في الكلام عن مباني دمشق

* * *

التجارة — السوريون بنوع عام تجار ابناء تجار ورثوا الميل الى التجارة من اسلافهم الفينيقيين الذين كانوا يأخذون مصنوعات صور وصيداء وارواد من الخز والصوف والكتان والجلود والارجوان ويسيرون بها بحراً الى سواحل اوربا وافريقية والهند ويتاجرون بها ويجلبون بدلاً منها الذهب والفضة والنحاس والقصدير والعاج والابنوس . ومن اسلافهم العرب الذين كانت قوافلهم حلقة الاتصال بين الشرق والغرب

والمهاجرة التي شاعت منذ ثلاثين سنة الى الآن انما هي ضرب من المتاجرة فان الذين يهاجرون يذهبون الى اوربا واميركا وافريقية واستراليا وجزائر البحر بمصنوعات بلادهم ويتجرون بها ويعودون بالاموال التي كسبوها منها . وقد توطن بعض المهاجرين في البلاد التي هاجروا اليها كما نعم اسلافهم الفينيقيون الذين عمروا قرطاجنة وكانوا اكبر اعداء الرومانيين نعم ان مفهوم التجارة في هذا العصر اسمى من ان يتناول بيع السلع الصغيرة بالتفاريق كالملابس والمسابح وما اشبه مما يبيعه بعض المهاجرين ولكن معنى التجارة الاصلي بيع البضاعة مهما كان نوعها وهذا ما يفعله المهاجرون . ولبعضهم بيوت تجارية كبيرة تتعاطى التجارة باوسع معانيها وتقدر البضائع التي في مخازن بعضهم بمئات الالوف من الليرات وترى بيوت السوريين التجارية منتشرة في اكبر عواصم الدنيا مثل لندن وباريس ونيويورك والاسكندرية ومنشستر والاسكندرية وريوجنايرو وبوكوهاما وهي تتاجر بكل البضائع الشرقية والغربية ولا شبهة في ان فساد الحكومة الماضي الجأ الوفاً الى المهاجرة ولم يكونوا ليهاجروا لولا ذلك ولكن هذه المهاجرة لم تضر بهم ولا ببلادهم بل استفادوا هم واستفادت البلاد ايضاً وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . ولا نشير على الحكومة الحاضرة ان تقف في سبيل المهاجرة بوجه من الوجوه . وان كان ستون في المئة من المهاجرين قد عادوا الى بلادهم في العصر الماضي مع فساد احكامها فلو صحت الاحكام عاد تسعون في المئة من المهاجرين وصارت مهاجرتهم اسفاراً تجارية لا غير

وللبلاد ربح آخر من المهاجرة لا ينال بدونها وهو ان المهاجرين يعودون واسعي الاختبار عارفين باساليب العمران الجديدة ولا بد من ان يشيدوا بلادهم بها كما يشاهد الآن عياناً . نعم ان بعضهم يعودون بالامراض والاسقام ولكنهم قلال بالنسبة الى غيرهم وليس في الدنيا خير محض لا يمازجهُ شيءٌ من الشر

ولم اجد سبيلاً للوقوف على ما زاد في ربح البلاد من الزراعة والصناعة والتجارة منذ خمس وعشرين سنة الى الآن ولكني وقفت على دليلين قاطعين على زيادة الثمة او زيادة الاموال في البلاد . الاول ارتفاع اجور العمال . فابناء الذي كانت اجرتهُ نصف ريال منذ ثلاثين سنة صارت اجرتهُ الآن ريالاً ونصفاً . والمائة التي كانت تستدان بخمسة عشر منذ ثلاثين سنة صارت تستدان الآن بستة الى تسعة في السنة . وقد بلغني عن بعض المهاجرين الذين رجعوا من اميركا انهم لما لم يجدوا من يستدين منهم اموالهم بفائدة اودعوها بعض الصيارفة واعطوهُ اجرة ايداعها

***

الامارة — اريد بالامارة خدمة الحكومة والتوظف في وظائفها وهي مورد عذب كثير الزحام كان كذلك في العهد الماضي لا طمعاً بالراتب لانهُ لا يشبع من جوع بل طمعاً بما يكتسب من مال الرشوة . فاذا بطلت الرشوة تماماً لم يعد فيها مطمع ولو تضاعف الراتب . وخدمة الحكومة على ما فيها من الشأن الكبير ليست من المعايش الكبيرة لان رجال الحكومة من اعلاهم الى ادناهم لا يزيدون على واحد او اثنين في الالف من عدد السكان . ولم اكن لاهتم بهذا الموضوع وانا اتكلم عن المعايش بنوع عام لولا اني رأيت في لبنان امراً لا يصح السكوت عنهُ وهو ان طلاب الوظائف فيهِ يقلقونَ راحتهُ ويحيطون مساعي متصرفهِ سيئة اصلاحهِ فالمتصرف يشكو منهم والموظفون يشكون منهم ولم اكلم وجيهاً من وجهاء الجبل الا رأيتهُ يشكو منهم . وقد ذكروا لي اموراً في حد الغرابة فيخسر الواحد من طلاب الوظائف مئات وارقاً من الليرات للحصول على وظيفة لا ليكتسب من راتبها بل ليقهر خصومهُ او ليزيد نفوذهُ في بلدهِ واذا لم يفلح في نيل الوظيفة عربس الحكومة في اعمالها بما يلقيهِ سيئة طريقها من المشاكل والعثرات

وارى ان دواء هذا الداء سهل جداً وهو ان تجري حكومة لبنان مجرى الحكومة المصرية فلا تعزل موظفاً ابداً الا اذا ارتكب ذنباً يوجب عزلهُ بعد محاكمتهِ فيثبت الموظفون الحاليون في وظائفهم من قائمقامين ومديرين وقضاة وكتاب وما اشبه ولا يبقى لاحد مطمع

فيها وتزول المضار الناتجة عن تطلب الوظائف

وينتظر اهالي الولايتين سورية وبيروت من الحكومة الدستورية ان تعهد الوظائف لابنائهما الاكفاء لانهم اعرف بالبلاد من غيرهم وهذا لا ينفي توظيف الاتراك في الولايتين كما لا ينفي توظيف ابنائهما في ولايات اخرى . وما الوظيفة في الحكومة سوى عمل يقتضي ان يتدرب لهُ اقدر العمال عليهِ فيجب ان تكون الكفاءة الشرط الاول الذي يشترط في مأمور الحكومة . ولا يخفى ان معرفة اللغة العربية من اهم لوازم الكفاءة في هاتين الولايتين فاذا تساوت بقية الاوصاف وجب ان يفضل ابن البلاد على غيرهِ لخدمة بلادهِ

***

الضيافة — بلاد الشام كلها اي ولاية سورية وولاية بيروت ومتصرفية لبنان ومتصرفية القدس اكثر البلدان العثمانية متصداً للسياح والزوار لان فيها بيت المقدس قبلة المسيحيين ومحط آمال الاسرائيليين وفيها دمشق الفيحاء باب الكعبة واقدم مدن الدنيا وفيها جبل لبنان الذي لا يفوقهُ جبل في جودة مائهِ وطيب هوائهِ واعتدال الحر والبرد فيهِ وقد صارت ولايتا سورية وبيروت الآن طريق الحج الى مكة المكرمة فلا عجب ان قصدها الزوار والسياح والمصطافون من كل اقطار المسكونة ولاسيما اذا ضرب الامن اطنابهُ فيهما و بذلت العناية التامة في راحة الواردين اليهما . اما الربح الذي تنالهُ البلاد منهم فاكثر مما يظن فان اهالي سويسرا مثلاً يربحون من زوار بلادهم ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات كل سنة والمجلس البلدي بباريس يربح من زوارها كل سنة سبعة ملايين من الجنيهات وميزانيتهُ كلها اربعة عشر مليوناً

وقد رأينا من اهتمام اللبنانيين بالمصطافين ما يذكر فانهم انشأوا الفنادق الكبيرة واتقنوها ولاسيما في صوفر وزحلة وعاليه وسوق الغرب وبكين وبحمدون وعين زحلتا وظهور الشوير . وكل قرى الجبل الكبيرة الغزيرة الماء تصلح للاصطياف اذا بنيت فيها الفنادق المتقنة وربطت مع بيروت بالبوسطة والتلغراف . وطرق المركبات منتشرة الآن في كل انحاء الجبل ومتصلة بكل قراهُ الكبيرة ولكن يعوزها كلها « المونسات » والاصلاح المستمر . وجميعها لو وسعت كلها حتى يسير عليها الاتوموبيل بسهولة . ولا بد من رشها كلها في القرى وحولها حيث يكثر السير عليها فيكثر الغبار فيها

ومن العبث ترك الامور العمومية كاصلاح الطرق ورشها للاهالي انفسهم لانهم قلما يجتمعون على شيء واذا اجتمعوا عليهِ اليوم تفرقوا غداً فيحسن بحكومة لبنان ان تنشئ ادارة مخصوصة تتولى امر الطرق والمنافع العمومية وترصد عليها ريع الاراضي المشاع او ضرب

ضرائب جديدة على الاملاك التي تنتفع من اصلاح الطرق على نسبة انتفاعها منها

هذا كلام مجمل عن معايش السكان ولا يسعني المقام الآن لزيادة الاسهاب . وقد سألت دولة والي سورية عن نسبة بلاد الشام الى غيرها من ولايات السلطنة العثمانية التي رآها فقال ان ما رآهُ منها حتى الآن يجعلها من ارقى الولايات العثمانية ولا يفوقها الاَّ ولاية سلانيك وانهُ اذا استتب الامن والعدل فيها فاقت كل الولايات العثمانية

(٣) الطرق والمصايف وبيوت السكان

رأيت التغيير كبيراً في سورية ولبنان كما تقدم في رسالتي السابقتين واكبرهُ في الطرق والمصايف وبيوت السكان وها انا شارح ذلك بشيء من الاسهاب

***

الطرق — لما اتيت حيفا وسمعت صوت القاطرات فيها ورأيت سكتها الحديدية قلت هنا مبدأ تغيير كبير ستنال منهُ البلاد الثروة الطائلة والنفع العميم . لان كسب الناس بعضهُ من استثمار الارض واستعمال القوى الطبيعية وبعضهُ من الاقتصاد في قوتهم وقوة دوابهم ومواشيهم باستخدام البخار للعمل والنقل . ولم ترجح كفة اوربا علينا في الزراعة والصناعة والتجارة الاَّ منذ اعتمدت على البخار في اعمالها

وقد اقيم في حيفا نصب جميل تذكاراً لفتح هذه السكة وهو من الرخام يمثل دقة الصناعة ولو لم يمثل لحاستها . وقد ظهرت فوائد السكة بارتفاع اثمان الاراضي وكثرة البضائع المشحونة الى حيفا ومنها . ولا بد من انشاء مرفإ لهذه المدينة ورصيف كبير لتفريغ البضائع لان رصيفها الحالي لا يليق بقرية صغيرة . وانشاء المرفإ لهما لا يقتضي نفقة كبيرة . وقد يظن لاول وهلة انهُ يضر بمرفإ بيروت وبيروت نفسها ولكنني لا ارى الامر كذلك لان خيرات البلاد كثيرة وهي قابلة للنمو الى حد يفوق التصديق فيمكن كل من المرفأين حظاً وافراً منها وهب انهُ اضر فالتنازع يقع بين المدن كما يقع بين افراد الانسان والحيوان ولا عذر للقصر فيه

وتشتمل فوائد هذه السكة كل البلاد التي تمر فيها وتصل اليها ولاسيما بلاد حوران حيث تزيد غلة القمح على طعام السكان . وكان نقلهُ الى السواحل البحرية يتعذر في غالب الاحيان لغلاء اجرته . وقد شرعت دمشق تجني فوائدها بنقل فواكهها وبقولها الى الاماكن القاصية عدا مصنوعاتها المختلفة

ولما وصلت الى بيروت ورأيت السكة الحديدية الصاعدة الى دمشق والسكة الذاهبة الى المعاطتين وازدحامهما بالركاب والبضائع زالت من نفسي غصة كنت اشعر بها كلما رأيت قطرات سكة الحديد تنساب في البلدان الاوربية سهولها وجبالها والبلاد السورية خالية منها

والقطر بين بيروت ودمشق يسير المولينا لشدة الميل لكن الراكب لا يمل لكثرة ما يراه من المناظر البهجة على الجانبين بين آكام توشحت بالحراج والكروم ووهاد تغطت بالحدائق والبساتين وبين هذه وتلك بيوت القرى وأكثرها جديد ابيض الجدران احمر السطوح تدل على رفاهة السكان ورخاء المعيشة . وكنا وصل الى محطة والمحطات كثيرة رأى كثيرين في انتظار القادمين او توديع الذاهبين وهم رجال ونساء بوجوه طليقة وثياب نظيفة

وقد تساهلت سكة الحديد للمصطافين في الاجور حتى صار بعضهم يستسهل قضاء الصيف في عاليه او بحمدون وما يجاورهما وينزل الى بيروت ويصعد منها كل يوم . روي عن الاستاذ الحوراني انهُ سئل اين تقضي فصل الصيف الآن فقال في « الترجمان » (القطر) لانهُ يصعد وينزل كل يوم

ورأى المصطافون ان يجعلوا السفر نزهة حتى لا يملوا فتراهم في القطر يأكلون النقل ويشربون القليل من العرق او نحوه على جاري عاداتهم قبل العشاء ولم اسمعهم يتحدثون باشغالهم ومتاجرهم كأنهم ترفعوا عن هموم الحياة ومشاغلها لكن لا يندر ان يحدثوك عن احوال الحكومة وما هي سائرة اليه

ومتى اجتازت السكة صوفر ووصلت الى ظهر البيدر صارت الارض قاحلة على الجانبين لشدة البرد هناك شتاء وتراكم الثلوج ولكنك لا تلبث ان تطل على سهل البقاع وهو مزروع وغير مزروع من اجمل بقاع الدنيا لاختلاف الوان ارضه ومزروعاته لاسيما وان جانباً كبيراً منهُ بساتين من شجر التوت وجنائن من الفاكهة يحيط بها شجر الحور كالسوار بالمعصم . وهذا الشجر ريع كبير لانهُ لا يشغل الا مساحة ضيقة من الارض وقد يبلغ ثمن الشجرة منهُ مئة غرش او مئتي غرش اذا بلغ عمرها عشرين سنة الى ثلاثين ويسع الفدان الرقا من اشجاره ومتى زرع مرة لا يعاد زرعهُ ثانية لان خراعيب الشجرة المقطوعة تقوم مقامها . ولا بد من ان يكثر السكان من زرعه في كل الاماكن التي يكثر ماؤها متى تيسرت لهم وسائل نقل خشبه ورخصت

وينساب القطر في البقاع يسرع تارة ويبطئ اخرى على غير انتظام . لكن الراكب

لا يمل لانهُ يرى اكام لبنان الشرقي والغربي تتغير امامهُ دواماً وهي مشاندة بعضها فوق بعض كالقباب وقد اختلفت الوانها فازرت بقوس السحاب . والسند الغربي منها كثير القرى والدساكر والكروم والبساتين واما الشرقي فيكاد يكون قاحلاً لكن قفلهُ زادهُ مهابة . ثم تبتدئ البساتين على جانبي الخط قرب محطة رياق حيث يلتقي خط دمشق بخط حلب وبعلبك وتستمر الى ان يدخل الخط منفرجاً في الجبل الشرقي تجري فيهِ المياه فتحيي ما زرع فيهِ من شجر ونجم . والماء حياة الحيوان والنبات ولا ادل على ذلك من هذا الوادي الذي يكاد يكون شقاً بين صخرين شاهقين يرتد عنهما الطرف كليلاً فان السيول جرفت اليهِ ما استقرَّ فيهِ من التراب وانبثقت الينابيع من جوف الجبل فسقت ما زرعهُ الانسان من شجر ونبات فزكا زكاء عجيباً

والوادي ضيق جداً كثير التعرج لكنهُ غض الشجر ملتفهُ تتدفق المياه فيهِ كالصهباء وتنساب كبطون الحيات . ثم يفرج عند الزبداني عن جنان كجنائن الخلد وفراديس جمعت الخير ما ولدتهُ يد الانسان من ثمار الارض . ترى العنب والتفاح والاجاص (الكثرى) فتظنها ثمرات صناعية لا طبيعية لجمال الوانها واتساق اشكالها . وتجد من التكهة والفكاهة في رائحتها وطعمها ما لا تجدهُ في غيرها . والاولاد يبيعون سلالها للركاب وهم بثياب نظيفة ووجوه صبيحة فلا يخطر ببالك ان تفصل شيئاً تشتريهِ منهم . وقد تشتري سلة بغرش فتجد فيها اقة او اكثر من العنب الفاخر

ومن هناك تصير الينابيع تجري الى جهة دمشق الى ان تدخل غوطتها المشهورة في وسكة الحديد وها يقف القلم عن الوصف عجزاً

ولا أدري لمن الفضل الاكبر في خصب هذه الغوطة أللصناعة ام للطبيعة خمسون الف فدان كانها بستان واحد من ملتف الشجر من كل انواع الفاكهة التفاح والمشمش والدراقن (الخوخ) والسفرجل والكمثرى والكرز ومن الاشجار المثمرة وغير المثمرة كالزيتون والجوز والحور والدردار وكروم العنب المختلفة الاشكال والالوان تجري في اعاليها واسافلها متدفقة متزاحمة على ارتفاعات مختلفة وبعضها شديد التحدر جداً فيرعى ويزيد كالنجر الخضم حتى ان الماء الذي حوَّلت قوتهُ الى كهربائية لانارة دمشق واجراء الترامواي فيها يبلغ ارتفاعهُ مئة قدم مع انهُ لم يحجز الاَّ مسافة قصيرة جداً . وكأن وقوع هذه الغوطة بين جبال شاهقة نقية الهواء وريها من ينابيع صافية خالية من كل شائبة زادا في نماء اشجارها وزكاء اثمارها

.*.

والخط بين بيروت والعاملتين لا تقل مناظره جمالاً عن مناظر الخط بين بيروت ودمشق فمن الجهة الواحدة ترى البحر يرمي ويزبد هائجاً ماثجاً او يتجمد ويتنفس هاجعاً خاشعاً وهو في الغالب ازرق كاللازورد شفاف كالبلور انبسطت الجنائن والبساتين على ساحله حتى لثمت صفحة خدمه ومن الجهة المقابلة ربى لبنان بجراجيها ووعورها وبيوتها وقصورها مخاريط متساندة متلاصقة عرتها صخورها الامطار وخدّدت جوانبها السيول ولكن بقي فيها من التربة ما يكفي لنمو الصنوبر والسنديان والملول والتين والكرم والزيتون

ويمر الخط في طريق ملوك بابل واشور في سكة الغراعنة والبطالسة والقياصرة الى ايام بوابرت ملوك لم تزل آثارهم على صفحات تلك الصخور الشواهق شاهدة على سعي الناس في طلب المكسب ولو بتحمل اشد المشاق وقتل الالوف من العباد. وقد استتب لابناء هذا العصر ما عجز عنهُ اولئك الملوك العظام مع شديد بطشهم وواسع ملكهم وكثرة من ساترا من الجنود والاسرى لان هؤلاء قطعوا الصخر ومهدوا طريقاً على شاطئ البحر فسارت فيه المركبات والقطرات واما اولئك فاضطروا ان يسيروا بجيلهم ومركباتهم فوق الصخور والعراقيب

وقد اقمت نظري في بيوت السكان من نهر بيروت الى اسكلة جونيه ومن ساحل البحر الى اعلى ما يصل اليهِ البصر لاستدل منها على مبلغ ثروتهم ورفاهتهم لان ذلك اصدق دليل على نجاحهم وصلاح حالهم. وغني عن البيان ان اكثر هذه البيوت جديد لم يكن شيءٌ منهُ منذ ثلاثين سنة واتفق اني لبثت حينئذٍ سيدة اميركية وبيت في الشام ووقفت نفسها على خدمة ابنائهِ وهي الدكتورة ماري ادي فسألتها عن معيشة السكان في بيوتهم فاكدت لي انها صالحة جداً وقد ترقت كثيراً عما كانت عليهِ منذ عشرين سنة او ثلاثين. ولما اشرف القطر بنا على جونيه لم اصدق اني ارى امامي القرية الصغيرة التي رأيتها منذ ثلاثين سنة فانها اصبحت مدينة كبيرة بيروت نفسها تضاهي بيوت المدن الاوربية وقد بنت تلك السيدة مستشفى للسواحين الى شمالها لطيب هوائها وبنت لهم مستشفى آخر في الشيائية بوادي حمانا الذي تغزل في وصفهِ لامرتين الشاعر الفرنسوي. والسواحون يقيمون هناك في فصل الصيف وهنا في فصل الشتاء فيشفون في المصحين بطيب الهواء وجودة الغذاء

هذه هي الطرق الحديدية التي رأيتها ولا بأس بها ولا بمركباتها ولا بما يراهُ الركاب من المعاملة. بل ان معاملة الركاب فيها احسن من معاملتهم في القطر المصري فاذا كان مع راكب صندوق كبير يتعذر دخولهُ في مركبة الركاب وضعوهُ في مركبة الامتعة من غير اجرة. ولم ار شيئاً من الخلل الا في عيد الفطر اذ ازدحمت المركبات بالركاب ازدحاماً يفوق الحد وابى

بعضهم ان يدفع الاجرة المطلوبة منهُ فنفض الكومسارية الطرف تجنباً للنزاع . ثم ان احد الركاب اغتنم فرصة دخول القطر في نفق مظلم فاطلق مسدسهُ مراراً من النافذة فاقلق الركاب ولكن قبض عليهِ قبل ان هرب . واتفق اني دعيت للعشاء مع دولة والي بيروت عشية ذلك اليوم فقال في حديث طويل انهُ منع اطلاق البارود في رمضان فقلت لهُ ولكنهم اطلقوهُ في القطر فقال نعم ولكنا قبضنا على الذي اطلقهُ حالاً وسيعاقب عقاباً صارماً . فدل بذلك على تيقظهِ التام

***

اما طرق المركبات فاني رأيتها منها في المدن في يافا وحيفا وبيروت ودمشق اكثرها لا يصلح ان يكون في مزرعة صغيرة نعم ان في يافا شارعاً جديداً طريقهُ جيد وكذلك في دمشق طريق جديد خارج المدينة ولكن الطرق الداخلية كلها وطرق بيروت الاَّ القليل منها كثيرة الحفر والحجارة حافية من الماشي الجافية . ومن الغريب انك ترى في دمشق اسواقاً واسعة مسقوفة بقناطر من الحديد مثل احسن اسواق المدن الاوربية الكبرى ولكن ارضها تراب غير مستو ولا تماشي فيها فيختلط المارة بالبغال والحمال والمركبات على انواعها . والحوادث قليلة ولكن هذا الاختلاط يضيق الناس والدواب عن السير ويضيع الوقت سدًى . وقد سألت اولياء الامر في بيروت ولبنان ودمشق وحيفا ويافا لماذا لا يصلحون الشوارع ويرصفونها فشكوا كلهم شكوى واحدة وهي قلة المال لدى المجالس البلدية

ومن الغريب ان الرجل الذي ينفق خمسة آلاف جنيه على بناء بيت يبخل بخمسة جنيهات في السنة على اصلاح الطريق الموصل اليهِ بل قد يحتال حتى يأخذ شيئاً من الطريق . هذه حال لا ترضي بوجه من الوجوه ويجب ان يتقدم توسيع الشوارع على بناء البيوت وان يتقدم اصلاحها على اصلاح المساكن . والظاهر ان الناس عرفوا كيف يعيشون ويحسنون معيشتهم افراداً مستقلين ولكنهم لم يعرفوا حتى الآن كيف يعيشون جماعات فكل بيت جديد على حدته حسن البناء والاثاث والرياش ولكن مجموع البيوت غير منتظم والمنافع العمومية التي يشترك الجمهور فيها مهملة كل الاهمال لان الحكومة لا تهتم بها الاهتمام الواجب ولا المجالس البلدية تقوم بما يجب عليها . ولعل الحال تتغير قريباً فان الولاة الثلاثة الذين حادثتهم في هذا الموضوع والي بيروت ووالي سورية ومتصرف لبنان رأيتهم مهتمين باصلاح الحال

وطرق لبنان احسن من طرق المدن ولكنها تفتقر كلها الى المؤنات والى الاصلاح المستمر . ولا بد من توسيع اكواعها لكي تصلح لسير الاوتوموبيل عليها فاذا صارت كلها

صالحة لسيره لم تبق قرية من قرى لبنان الا صارت صالحة للاصطياف . فمع ان الاموال اللازمة لاصلاح الطرق كثيرة ولكن الفائدة التي يجنيها الجبل من اصلاحها تربو على ما ينفق اضعافاً مضاعفة

وفي لبنان طريق قديم للمركبات وهو طريق المجلس بين بيروت ودمشق وقد ردته شركة المجلس الى الحكومة العثمانية فوهبهُ السلطان عبدالحميد للنظارة الحربية كأن الجيش العثماني لا يحق لهُ ان يمر في لبنان الا على هذا الطريق . ولا غرابة في ما عملهُ عبدالحميد لان اعمال المجانين لا قيد لها ولكن الغرابة في ان الحكومة الدستورية لم ترَ حتى الآن فساد هذه الهبة وضررها بحقوق السلطنة

وقد ارادت متصرفية لبنان ان تصلح هذا الطريق وتضع رسماً طفيفاً على ما يمرّ عليهِ من الدواب والمركبات لكي تنفق منهُ على اصلاحهِ فابت عليها نظارة الحربية ذلك . فان كان المراد الاعتراض على وضع الرسم فالاعتراض حسن ويحسن بلبنان ان يصلح هذا الطريق ويبقيهُ حرًّا كما هو الآن والنفقات التي تنفق على ترميمهِ واصلاحهِ لا تضيع لان نفعهُ كبير جدًّا للجبل كلهِ . وان كان المراد ان يباح للبنان ترميم الطريق واصلاحهُ ثم يمنع ابناؤهُ من السير عليهِ من غير ان يدفعوا رسماً للحكومة العثمانية فذلك اجحاف مضر بمصلحة لبنان . وخير من هذا وذاك ان تلغي الحكومة الدستورية ما فعلهُ عبدالحميد لانهُ مناقض لسلطتها على لبنان ومضر بمصلحة سكانهِ وهو جزء لا يتجزأ من املاكها فتترك الطريق لهُ ليصلحهُ وينتفع بهِ

وقد انشئت طرق لبنان كلها باموال يدفعها سكانهُ المكلفون يدفع العامل الفقير منهم الذي لا يملك شبرًا من ارض كما يدفع الغني صاحب الاملاك الواسعة والثروة الطائلة مع ان الثاني يستفيد من انشاء الطرق واصلاحها اضعاف اضعاف ما يستفيدهُ الاول . واهالي بيروت الذين لهم املاك واسعة جدًّا في لبنان لا يدفعون غرشاً واحداً لانشاء هذه الطرق واصلاحها وقس عليهم رهبان الاديرة مخالفين بذلك القاعدة القائلة ان لهُ الغنم عليهِ الغرم . ولا بد من تغيير هذه الحال عاجلاً او آجلاً . واصحاب الاملاك الذين يعارضون حكومة لبنان في وضع ضرائب خصوصية على املاكهم لاجل الطرق يضرون انفسهم ويضرون الجبل كلهُ لان الطرق تضاعف قيمة الاملاك واما الضرائب فلا تكون الا جزءًا طفيفاً منها

المصايف — كل قرى لبنان الجبلية تصلح للاصطياف وكذلك قرى الجبال المجاورة لبافا وحيفا وعكاء وصور وصيداء وطرابلس واللاذقية ودمشق ولكني لم ارَ الا مصايف

لبنان وهي اشهرها وافضلها لجودة مائها وبرد هوائها وسهولة الوصول اليها . وقد بنيت في بعضها الفنادق (اللوكندات) الكبيرة كفندق صوفر الذي يعدّ من الطبقة الاولى بضخامة بنائهِ وحسن رواقهِ وفنادق عاليه وبكين وسوق الغرب وبحمدون وعين زحلتا وظهور الشوير وزحلة وبعلبك ودمشق . وكلها مثل فنادق القاهرة التي من الدرجة الثانية في فرشها وطعامها ونظافتها واستتباب وسائل الراحة فيها لكن الخدم اللبنانيين لم يبلغوا مبلغ الخدم الاوربيين في تنظيم المائدة وتنظيف غرف النوم ولا منظرهم يرضي الناظر مثل منظر الخدم الاوربيين ولاسيما الدلل الذين يخدمون على المائدة فان الخادم يجب ان يكون نظيفاً في لبسهِ لبقاً في حركاتهِ . والاجرة التي تأخذها الفنادق وهي ثمانية فرنكات في اليوم ليست قليلة بالنسبة الى رخص البلاد فان الفنادق التي تأخذ ثمانية فرنكات في سويسرا أكثر منها اتقاناً واكثر اساليب لسلية المصطافين

اما الطعام بجيد وهو كثير يزيد على الحاجة وكذلك الفاكهة فانها في فنادق لبنان اكثر منها في فنادق اوربا فترى على المائدة صحاف التين والعنب والكمثرى والتفاح والبطيخ صباحاً وظهراً ومساء حتى لو اراد احد ان يعيش على الفاكهة وحدها كما يفعل المتحمسون في وصفها علاجاً لكل الامراض لرأى ما يكفيهِ منها

والغالب ان يكون الفطور من لبن وشاي او لبن وقهوة وجبن ومربى وعسل وبيض مسلوق او مقلو . والغداء من مقبلات ولونين من اللحم ولون من السمك او الطير والعشاء من شوربا ولونين من السمك او الطير ولا يقدم الشاي بين الغداء والعشاء

ولا بدّ من زيادة الاعتناء بالنظافة والخدمة ومن إلباس الخدم كلهم ثياباً نظيفة جدّاً ولو وقت الخدمة على المائدة

ولا بد ايضاً من رش الطرق التي في المصيف والقريبة منهُ مرتين او ثلاثاً في النهار حتى لا يثور منها شيء من الغبار فيستسهل المصطافون المشي فيها دواماً وتؤخذ نفقات الرش من اصحاب الفنادق ومن اصحاب البيوت لانهم كلهم يستفيدون منهُ سواء اجروا بيوتهم او لم يؤجروها

ولا بد ايضاً من انشاء الحدائق والمتنزهات العمومية وساحات الالعاب الرياضية فان في كل مصيف ومشتى من مصايف اوربا ومشاتيها حدائق ومتنزهات وساحات ووسائل مختلفة لتسلية النزلاء وترغيبهم في اطالة اقامتهم كما ترى في بريطن وايستبرن ولندن وجنيف وغيرها من المدن الاوربية

ولا يستهان بالمصايف والمشاتي فان بلداناً كثيرة تعيش منها وتعتمد عليها كاكبر وسيلة لمعيشة سكانها . وليس في القطر المصري مصيف لسكانه غير رمل الاسكندرية ورأس البر وهما لا يغنيان عن الاصطياف في بلاد جبلية طيبة الهواء كربى لبنان . ويذهب الآن مئات وألوف من سكان هذا القطر الى اوربا لتغيير الهواء فيها فاذا وجدوا وسائل الراحة والرفاهة في لبنان كما يجدونها في اوربا فضلوه عليها من كل وجه لاسيما وان القطرين مشتركان في اللغة والمشرب

ومدن الساحل كلها صالحة لان تكون مشتى لاهالي دمشق ولبنان وللاوربيين الذين يشتون في جنوبي ايطاليا وفرنسا لاسيما وان كثيرين منهم يفدون الى القدس الشريف في الربيع للزيارة فاذا وجدوا في يافا وحيفا وصور وصيداء وبيروت وطرابلس فنادق متنزهات ووسائل للتسلية اقاموا فيها اياماً واشهراً كما يقيم بعضهم الآن في فنادق القطر المصري

ولا ما يمنع بيروت عن ان تكون مقصداً للسياح من كل الاقطار اذا توفرت لهم فيها وسائل الراحة والنزهة واصلحت طرقها التي فيها والتي في ضواحيها حتى يتيسر لهم الخروج للنزهة يوماً بعد يوم . وهذه الاماني لا تحقق في القريب العاجل ولكن ما رأيته من تقدم البلاد السريع في خمسة وعشرين عاماً يرشد الآمال ببلوغ المراد بعد زمن غير طويل

ولا يقتصر الاصطياف على النزول في الفنادق بل يتناول استئجار البيوت المفروشة وغير المفروشة . وطالما سألني سراة المصريين هل نجد في لبنان بيوتاً معدة لنزولنا فيها وجامعة اسباب الراحة فكنت احار في الجواب لاني لم أكن واقفاً على الحقيقة اما الآن فاقول ان البيوت المعدة لذلك موجودة ولكنها لا تفي بالمراد تماماً كالبيوت المعدة لنزول المصطافين والمشتين في اوربا ولاسيما في البلاد الانكليزية حيث تجد البيت الواحد شققاً مختلفة وفي كل شقة غرف نامة وغرفة جلوس وغرفة طعام والبيت كله مطبخ مشترك او مطابخ مختلفة وحديقة يتنزه المصطافون فيها وفي كل شقة كل ما يلزم لها من الاثاث والرياش . فهل يفعل اهالي لبنان وبيروت مثل ذلك في القريب العاجل ترغيباً للمصطافين والمشتين . الظاهر انهم يفعلون وهم راجحون لان هذا المورد ليس مما يستخف به

وتختلف اجور البيوت المعدة للاصطياف مدة فصل الصيف من نحو عشرة آلاف غرش الى نحو الفي غرش حسب كبر البيت وصغره وكونه مفروشاً او غير مفروش وحسب القرية التي هو فيها . والغالب ان تبلغ اجرة البيت نحو ثلاثة او اربعة في المئة من ثمنه فتكاد تكون مثل ريع الاملاك في لبنان

بيوت السكان — تأنق سكان لبنان وبيروت في بناء بيوتهم وزخرفتها. اما اهالي بيروت فقد جروا في هذا المضمار منذ اربعين سنة او خمسين ولم تزل البيوت التي بنيت حينئذٍ مثل بيوت سرسق وبسترس والجدي وبيهم وحماده والعريس من اتم مباني بيروت واثمرها. ثم كثر ما بني على نسقها ولا يزال البناء مستمرًّا. والغالب ان يكون البيت الواحد طبقتين او ثلاثًا وفي كل طبقة دار فسيحة طولها عشرة امتار الى خمسة عشر متراً او اكثر وعرضها خمسة امتار الى ستة او سبعة وحولها غرف كثيرة بعضها كبير للجلوس والاستقبال والطعام وبعضها صغير للنامة. ودائرة المطبخ والخدم متصلة بالبيت ولكنها تكاد تكون منفصلة عنهُ وهي في الغالب الى الجانب الجنوبي الشرقي. والدار واجهة بثلاث قناطر على ثمانين من الرخام. وقد بنيت البيوت الجديدة في لبنان على هذا النسق بين كبيرة وصغيرة. وزيد القان بعضها تمًّا في زحلة وبكفيا فبنيت جوانب الابواب والشبابيك واعتابها بالحجر النحيت وزخرف بعضها بنقوش حسنة وسقفت كلها بالقرميد دفعًا للوكف ولتجمع الثلج. وقد كانت سطوح البيوت قبلاً مستوية فيضطر اصحابها ان يكحلوها مراراً في الشتاء او يحدلوها اذا كانت ترابًا ويجرفوا الثلج عنها اذا كانت في الجبال فكفوا الآن مؤونة ذلك كلهِ. ولكنك ترى بيتًا اتفق صاحبهُ نفقات طائلة على بنائهِ وزخرفتهِ وصنع لهُ طشتًا تحت القرميد من الحجر النحيت ثم تركهُ من غير حمام ومن غير مستراح او بنى فيهِ مستراحًا ولكنهُ لم يضع فيهِ آلة ذات نمص وحوضًا للماء. فهذه الشوائب يجب تداركها حالاً ولاسيما في البيوت المعدة للتأجير

واكبر نقص في لبنان من هذا القبيل ان ليس فيهِ ادارة هندسية صحية لتنظيم المباني والشوارع فكل احد يبني على هواهُ وعلى الصورة التي يختارها والغالب انهُ يزحم الطريق على ضيقها حتى يتعذر توسيعها في المستقبل. ولكن انشاء ادارة تنظيم فيهِ متعذر الآن فلم يبقَ الا ان يرى البنائيون انفسهم ان تنظيم مبانيهم الزم لرونقها وروائها من نحت حجارها وطي جدرانها

ويظهر ان اكثر الذين بنوا البيوت الكبيرة في لبنان غير قادرين على المعيشة فيها من حيث احوالهم المالية وانهم بنوها لا عن حاجة اليها بل لمجرد التباهي بها. فلا يندر ان يبني الواحد منهم بيتًا بكل ما معهُ من النقود او يشرع في بناء بيت ثم يجد ان نقودهُ لا تكفي لاتمامهِ فيهاجر ثانية ليأتي بما يتمهُ بهِ وبعضهم استدان واتم البيت الذي شرع في بنائهِ وهذا خطأ مبين لان الدين يأكل البيت لا محالة. اما الذين بنوا البيوت بكل ما جمعوهُ في المهاجرة من

النقود فلا سبيل الى لومهم لانهم لم يجدوا وسيلة أخرى « يرفقون » فيها اموالهم بعد ان غلت اسعار الاملاك (الارزاق) غلوًّا فاحشًا ولم يعد ريعها يزيد على واحد او اثنين في المئة من ثمنها

واكثر الذين حادثتهم وحادثوني في هذا الموضوع من وجهاء بيروت ولبنان مجمع على ان اللبنانيين اخطأوا في بناء هذه البيوت . اما انا فلا ارى رأيهم لان البيت الكبير الجميل يرفع شأن صاحبه ويزيد عزة نفسه فيزيد همةً واقدامًا واستهالاً للصعاب ويصير يفضل المهاجرة والتاجرة على العمل بيديه في الحقل والكرم والبستان ثم ان البيت الكبير المتقن يقتضي ان تجاوره لوازم المعيشة فيه من فرش واثاث وكل ذلك مما يذكي الهمة ويدعو الى السعي والاولاد الذين يربون في بيت كبير حسن الهندام يشبون على طلب المعالي والترفع عن الاعمال الشاقة القليلة الكسب

اخبرتني سيدة اميركية لقيتها في دمشق وهي من اوسع البلدات علمًا انها بحثت عن احوال المهاجرين السوريين في اميركا بحثًا مدققًا واطلعت على مباحث الحكومة الاميركية عنهم فوجدت ان المهاجر الايطالي او الرومي يكتفي بالعمل الشاق عاملاً في بناء البيوت ومد السكك باجرة محدودة لا تكاد تكفيه طعامًا وشرابًا سواء اجتهد او لم يجتهد . واما المهاجر السوري فيترفع عن ذلك ويشارك التجار في البيع والشراء والغالب انهُ يحمل بضاعتهُ ويجول بها من مكان الى آخر فيكون كسبهُ على قدر اجتهادهِ ومهارتهِ واقتصادهِ لاسيما وانهُ لا يشرب المسكرات مثل سائر المهاجرين

وواضح من ذلك انهُ لو ذهب الفلاح السوري الى اميركا وخدم هناك اجيرًا عند فلاح او فاعلاً عند بناء لما استطاع ان يوفر من اجرتهِ شيئًا يذكر وسهل عليهِ ان يعود الى عمل الحقل كما كان قبل ذهابهِ ولكنهُ لو فعل ذلك لما رأيت شيئًا من هذا الارتقاء الذي يرى الآن اما وقد ترك الحقول والخراث وراءهُ ودخل الخزن او حمل « الكشة » واعتمد على مهارتهِ في البيع والشراء وتجوالهِ للكسب في اماكن مختلفة ولم يتقيد باجرة محدودة بل راقب الفرص واغتنمها وربح اكثر مما يربح المهاجر الرومي والايطالي وعاد بمال وافر تكبرت نفسهُ وتاخر امراء بلادهِ واعيانها في دورهم بعد ان ابتاع اكثر املاكهم

هذا وقد كان لبناء البيوت الكبيرة في لبنان فائدة كبيرة لمدينة بيروت وتجارها لان اللبنانيين جلبوا اكثر مواد البناء من بيروت . والقطاعون الذين قطعوا الحجارة والبناؤون الذين بنوها والمورقون الذين ورقوها والتجارون الذين صنعوا مفجورها والنكارون الذين نقلوا

موادها كل هؤلاء انفقوا اجورهم على بضائع اشتروها من بيروت ونحوها من مدن الساحل فالمهاجرة التي عمرت لبنان زادت عمارة بيروت وسائر المدن الساحلية

وقد كنت اعجب كيف تيسر لاهالي بيروت ودمشق وما يتبعها ان يسيروا في سبيل الارتقاء في العشر السنوات الاخيرة مع اشتداد الظلم والقهر في سائر الولايات العثمانية الى ان اجتمعت اخيراً بدولتلو ناظم باشا والي بيروت فأكد لي انهُ حمى الاحرار وجرى على موجب الحكومة الدستورية كل مدة ولايته على سورية وبيروت وكان الجواسيس يفلحون احياناً في الوشاية بزيد او عمرو فتأتي الاوامر من الاستانة مشددة فيقضي عنها ما استطاع الى الاغضاء سبيلاً . وسمعت من كثيرين من العارفين به ما يؤيد ذلك وحسبهُ فخراً انهُ بقي هذا الزمن في الديار السورية ولم يرتش بغرش ولو اراد لجمع مئات الالوف من الليرات كما فعل غيرهُ من الولاة . والوالي الذي لا يرتشي لا يصادر الناس في اموالهم ولا يقف في سبيل تقدمهم ولذلك تيسر لاهالي هاتين الولايتين ان يسيروا شوطاً طويلاً في سبيل الارتقاء

الاستاذ لمبروزو

هو الدكتور قيصر لمبروزو ولد في مدينة فيرونا في الثامن عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٣٥ ويتصل نسبهُ باسرة اسرائيلية نبغ كثيرٌ من افرادها فكان بين اسلافهِ عددٌ من المؤلفين والاحبار والمحامين والاطباء وجدهُ لامهِ شاعر يدعى داود لاوي كانت لهُ يدٌ في ثورة ايطاليا التي آل امرها الى الاستقلال

ظهرت على صاحب الترجمة دلائل النجابة منذ حداثتهِ فرأى كثرة الآثار في بلادهِ ومال الى درس تاريخها فقرأ مؤلفات ليڤيوس وطاسيتس وغيرهما وألف مقالة في عظمة رومية وانحطاطها وذلك قبل ان يبلغ الثانية عشرة من العمر . وبعد ذلك بسنة عثر على كتاب في درس الآثار لرجل يدعى بولس مرزولو وهو على جانب عظيم من العلم الاَّ انهُ لم يكن قد نال الشهرة التي يتنفسها بعدهُ فكتب لمبروزو مقالة نقد فيها الكتاب واظهر محاسنهُ ونشر المقالة في احدى الصحف اليومية فسرَّ المؤلف بها وطلب ان يراهُ فلما التقى بهِ استغرب حداثة سنهِ فاستحكمت الصداقة بين الاثنين من ذلك الحين ودامت زمناً طويلاً

وترك لمبروزو الدروس المتبعة في المدارس العالية واخذ يتعلم اللغات الشرقية بارشاد